

للقرءاء

الموضوع الرئيسي لهذا الكتاب هو تأسيس متحف ومكتبة الإسكندرية وازدهارهما خلال فترة الحكم البطلمي، بالإضافة إلى العديد من الموضوعات التي تحتاج إلى مزيد من التوضيح كاختيار المكان الجغرافي لإنشاء هذا المركز الثقافي العالمي .

تم تحديد موقع إنشاء المدينة التي حَمَلَتْ اسمه فيما بعدُ من قبل الإسكندر نفسه، حيث راعى أن يكون موقعها في الطرف الشرقي للعالم الذي وصفه هوميروس في «الإلياذة»، أي جزيرة فاروس في مصر. كانت مصر في ذلك الوقت دولة ذات حضارة حديثة، يتمتع سكانها بعلاقات وثيقة على المستوى السياسي والتجاري وأيضاً الثقافي مع الشعوب اليونانية في عهد الفراعنة منذ منتصف الألفية الثالثة. ومما يدل على ذلك هو التأثير والتأثر المتبادل بينهم؛ فقد أثرت الثقافة المصرية على حضارة المينويين والميكينيين وسكان جزر بحر إيجه الشرقية، وأيضاً على فناني وأدباء تلك المناطق، كما تأثر سكان بلاد النيل أنفسهم من تلك الشعوب في العديد من المجالات، وخاصة التصوير الفني؛ كالرسم واستخدام الخزف، والنحت والفنون الصغيرة. ونتيجة لهذه العلاقة

المثمرة تم تأسيس مدينة نقراطس، في دلتا النيل في بدايات من القرن السابع ق.م، وهي أول مدينة يونانية في الشرق.

كانت فكرة إنشاء مركز سياسي وثقافي للإمبراطورية الإغريقية في الإسكندرية هي بالطبع فكرة القائد المقدوني، بهدف أن يتطور ليكون مركزاً عالمياً شاملاً، يتجاوز الحدود الجغرافية والعرقية واللغوية. كانت أفعال الإسكندر وسلوكه تجاه عالم الشرق سبباً في إعلاء قدره إلى مستوى الألوهية، فقد أصبح ملكاً بصفات ألوهية، ويتمتع بالقدرة على الاستلهام من التناغم الكوني، حيث قام بدمج العناصر المتباينة وصهرها لتكوين مدينته الفاضلة.

لم تقف لغة وكتابة شعوب الشرق وخاصة المصريين وعاداتهم وتقاليدهم وأعراقهم المميّزة عائقاً أمام تبادل النتاج الثقافي الذي امتد أيضاً إلى مجال الدين، كرابطة الأخوة بين الأولمبيين الاثنا عشر والآلهة المصرية.

نلاحظ أن النزعة الانتقامية لليونانيين ضد الفرس بسبب الكوارث التي أحدثها الفرس في المدن اليونانية وآثارها، والتي كانت سبباً في تكليف مجلس الشعب اليوناني الإسكندر بالتعبير عن موقفها بالقوة العسكرية، قد تحولت إلى سلوك رحيم وأخوي حتى تجاه أشد المعارضين له حينما أصبحوا في موقف ضعف. فنجد أن القائد المقدوني قد انتقم من القاتل الفارسي الخائن للملك داريوس، كما أكرم في معاملته للأسرة المالكة. وأيضاً بعد انتصاره على القائد بوروس، أعرب عن شهامته من خلال إعادة القائد المهزوم بوروس إلى عرش المرزبانية لم يحظ التاريخ بنماذج من شأنها أن يسير الإسكندر على خطاها كي يقوم بأمور كهذه، كما أن الأجيال التالية لم تقم بأعمال مماثلة كتلك التي قام بها

الإسكندر. تحدث الإسكندر عن خططه في المأدبة الرائعة في أوبيس، التي حضرها المقدونيون والفرس وممثلو الشعوب الواقعة تحت حكمه؛ في لقاء التعارف هذا، خاطب الإسكندر الحاضرين بخطاب هو أقرب ما يكون للموعظة الدينية وفقاً لما ذكره بلوتارخوس، حيث قال الإسكندر: «أمل أن يعيش جميع البشر من الآن فصاعداً كشعب واحد متحد من أجل الصالح العام». تبع ذلك الخطاب إشراف الإسكندر على مراسم الزواج بين المقدونيين والفرس، كما أنه أعاد المسؤولين الفرس إلى مناصبهم السابقة ومنحهم ألقاباً أعلى.

لا يمكن اعتبار مبادرة الإسكندر وحاشيته لاستخدام اليونانية كلغة مشتركة في إمبراطوريته أداةً لفرض اليونانية، وذلك لأنه لم تكن هناك لغة مشتركة في ممالك الشرق حينذاك. وهو الأمر الذي تم تأكيده من قبل المؤرخين اليونانيين الذين قاموا برحلات إلى تلك الممالك وسجلوا انطباعاتهم، مثل هيكتايوس من ميليسوس وهيروdot بالطلع، إضافة لما ذكره المؤرخون المصريون مثل بيروسوس ومانيتون. وكدليل على هذا نلاحظ أن الفرس بعد غزو مملكة عيلام وبابل وسوريا وفينيقيا، من القرن الخامس قبل الميلاد، اضطروا إلى تبني الآرامية كلغة مشتركة لإمبراطوريتهم، حيث أنهم على الأرجح لم يستطيعوا استخدام الكتابة المسمارية كوسيلة للتواصل. ومن الناحية التاريخية فقد ثبت أن اللغة اليونانية كانت ولا تزال تتمتع بمعيار لغوي هام يجعلها وسيلة تواصل بين الشعوب، فوفقاً لما ذكره الباحث الأثيني ديميتريوس هالكوكونديليس في خطابه الافتتاحي الذي ألقاه بمناسبة توليه المقعد الرسمي في جامعة بادوفا عام ١٤٦١، أنه لا توجد لغة أخرى بخلاف اللغة اليونانية لديها ثروة معجمية

تساعد في التعبير حتى عن أكثر الأفكار والمشاعر الحميمية، كما أنها تساعد على الوصف الدقيق والتفصيلي للأشخاص والأشياء.

كانت رؤية الإسكندر ستظل بلا شك مجرد رغبة، إذا لم يقم كاتب سيرته، القائد بطليموس لاغوس بما يلزم لتحقيقها، حيث أنه أبقى على الإسكندرية في مصر كعاصمة لمملكته، وأشرف على أعمال إعادة بنائها، وعهد إلى سوستراتوس بتصميم المنارة في الجزيرة التي تحمل الاسم نفسه، وأخذ زمام المبادرة في البحث عن الأشخاص المناسبين من الأدباء والفنانين لتنظيم المتحف والمكتبة. ظلت أهداف بطليموس متسقة تماماً مع خطط الإسكندر، فبالإضافة إلى المهمة الضخمة المتمثلة في جمع الأدب اليوناني القديم وتقييمه لغوياً - وهي الفكرة التي استوحاها الإسكندر من معلمه أرسطو- فقد بحث عن المترجمين المناسبين لترجمة كتابات شعوب الشرق من اللغات المختلفة إلى اليونانية مثل «الكلدانيين» الذي قام بترجمته مانيتون.

مما لا شك فيه أن المتحف والمكتبة لم يتم تخطيطهما معمارياً على غرار الأكاديمية والليسيوم (المدرسة الثانوية) فحسب، بل تم اعتماد أيضاً طريقة عملهم الخاصة. وتأكيداً لهذا فقد تمت دعوة بعض مديري المدرسة الثانوية مثل ثيوفراستوس وستراتون من أجل عرض مبادئ إدارتهم وكيفيةها كان قانون عمل المدرسة الثانوية قائماً على الحياة الرهبانية الجماعية، كما أن البرنامج الدراسي وطريقة التدريس كانت محددة، حيث كان يتم تكليف الطلاب الممتازين بتقديم الدروس في لقاءات دورية، وكان يتم تنظيم احتفالات في إطار هذه اللقاءات داخل المدرسة وخارجها. أيضاً كانت السمة المشتركة بين

الأكاديمية والمدرسة الثانوية هي تمتعهما برعاية الآلهة التسعة، راعيات الأدب،
والعلم، والفنون، أي (إلهات الإلهام أو الملهمات أو الميوزات).
تم إعادة تقييم الأدب القديم وتنظيمه بطريقة فلسفية، نظراً لأن العالم
القديم لم يكن يقوم بعملٍ مشابهٍ، ولم تقم أي مدرسة فلسفية أو مدرسة
أخرى بمشروع مماثل. لا تزال مبادرة ليكرجوس هي سابقة فريدة من نوعها،
وذلك عندما قام الأثينيون بتمويله من الميزانية العامة في الفترة (٣٣٨-٣٢٦
ق.م)، كي يقوم بنسخ كتابات التراجيديا وحفظها في الأرشيف العام لأثينا. وبعد
الانتهاء من عمله هذا ألزم القانون الأثيني جميع الممثلين بالاعتماد على
هذه النصوص دون غيرها. وجزير بالذكر هنا أن هذا العمل قد تم بناءً على
اقتراح أرسطو نفسه.

تُعدُّ أيضاً «لوحات» النحوي والشاعر الدؤوب، كاليماخوس السيريني (القرن
الثالث ق.م) إنجازاً لغوياً كبيراً غير مسبوق وجهد معجماً لم يُعرف له مثل
حتى يومنا هذا، فقد أوضح وحدد بدقة هوية مؤلفي كل فرع من فروع
العلم. وهكذا، وبفضل عمله هذا أصبح لدينا مرجعٌ بليوغرافيٌّ لدراسة الأدب
اليوناني القديم، قائمٌ على الترتيب الأبجدي لأسماء الكتاب وكذلك أعمالهم
الأدبية، وهو أداة أساسية للقيام بالأبحاث وإصدار الطبقات المزودة بالشروحات
والتعليقات.

لم يكن المتحف والمكتبة مركزاً منغلقاً على ذاته أو مجتمعاً انطوائياً، ولم
تكن حياة الرهبنة تُبعد أعضاءه عن العالم الناطق باليونانية. على أي حال،
قام أعضاء المتحف والمكتبة بإعادة تقديم إنجازات السنوات السابقة، مع

إضافة التعليقات الخاصة بها، حيث كان لديهم كل المساعدات المتاحة التي سمحت لهم باستغلال المواد والكتابات الأولية. ومن الأمثلة الدالة على ذلك هو إصدار مجموعة أبقراط والتعليق عليها من قبل هيروفيلوس الخلقدوني وإيراسيستراتوس، اللذين يعتبران مؤسسي ما سُمي بعلم الطب فيما بعد. من الإنجازات العظيمة التي تُضاف لباحثي المتحف هو التوصل لطريقة لدمج العناصر الفيزيائية مع النظريات والبديهيات الرياضية. كما قام ستراتون، الفيلسوف المشاء ومدير المدرسة الثانوية بعد ثيوفراستوس، في متحف الإسكندرية بدراسة الظواهر الفيزيائية، وملاحظة كيفية تحول العناصر الفيزيائية الأساسية تحت تأثير الحرارة، مثل الماء والهواء. حظيت الرياضيات باهتمام كبير في الإسكندرية خلال فترة البطلمة الأوائل، وازدهرت بفضل الأفكار الحديثة لعلماء الرياضيات، مثل إقليدس وأرخيميديس. من الممكن اعتبار التكنولوجيا الجديدة آنذاك، والتي كانت موجودة بالفعل منذ زمن المخترع كتيسيبيوس، في بداية القرن الثالث ق.م، نتاج هذين الفرعين من العلوم (أي الفيزياء والرياضة). وصل هذا الفرع الجديد، الذي نجت منه أمثلة قليلة جداً، إلى ذروته في العالم القديم في فترة هيرون السكندري، في القرن الأول الميلادي.

هذا المجتمع الرائع من الآداب والفنون لم يبقَ بعيداً عن متناول العالم الغربي والشرقي على أساس كونه إرثاً خاصاً بالبطلمة؛ فمع إعادة إصدار الكتب وتداولها في جميع أنحاء الأراضي الرومانية خلال القرن الأول قبل الميلاد، لم يكن هناك عائق لمنع نشر المعرفة تحت أي ذريعة سياسية أو أيديولوجية. أخيراً، أدى الفتح العربي للإسكندرية عام ٦٤٢ م إلى تهميش دراسة الأدب القديم،

ونتيجة لذلك تحولت بغداد ودمشق إلى مراكز بارزة لجميع الإنجازات الفكرية التي تم طباعتها باللغة اليونانية سابقاً. تُعد مساهمة المتحف والمكتبة في استعادة المعارف الضائعة جليّةً خلال فترة النهضة الإيطالية مع انتشار فن الطباعة، والتي كانت سبباً في إلقاء الضوء على الإنجازات الفكرية حتى ذلك الحين، كما تم ترجمتها إلى جميع اللغات. وأخيراً تجدر الإشارة إلى أنه كما كانت أثينا مُعلمةً لكل الإغريق وفقاً لكلمات ثوقيديديس، هكذا كان متحف الإسكندرية في عهد البطلمة، مركزاً تعليمياً وثقافياً عالمياً كما تخيله الإسكندر الأكبر.